الدبّور

مصطفى علي الحسن - السودان

حدث ذلك ذات ظهيرة قائظة. كنت مستلقيا على ظهري فوق سريري داخل غرفتي. وكان في يدي صحيفة يومية كنت قد فرغت على التوّ من مطالعتها. ولم أكن أدري ماذا أفعل بها؟!

كان المفروض بالطبع أن أطويها وأضعها على المائدة. ولكن المائدة كانت بعيدة في أقصى غرفتي الواسعة. وكنت أحس بإرهاق ونعاس شديدين. وكان مجرد التفكير في النهوض والذهاب إلى تلك المائدة كافيا لطرد النعاس عن عيني.

وقد كان بإمكاني أن أقذف بالصحيفة خارج النافذة القريبة مني. ولكنني كنت أعلم - حسب تجاربي السابقة - بأن الصحيفة لن تستقر حينئذ في مكان واحد. وأن الهواء سوف يقوم بتحريكها هنا وهناك فوق أرضية الردهة المرصوفة بالطوب. وسوف يصدر عن تلك الحركة صوت أشبه بصوت شاحنة ثقيلة حين يضغط سائقها على الفرامل دفعة واحدة.

وكان الحل الثالث هو أن أضع الصحيفة تحت وسادة سريري وأنام.

ولكن بما أنني قد اعتدت على تحريك رأسي كثيرا في أثناء النوم، فإن الصحيفة سوف تصدر صوتا يقل بالطبع عن صوت الشاحنة التي يضغط سائقها على الفرامل دفعة واحدة. ولكن ذلك الصوت سيكون قريبا جدا من أذني. وسوف يمنعني دون شك من الاستغراق في النوم.

وفي تلك اللحظة - بالذات - والصحيفة لاتزال بيدي - ترامى إلى سمعي صوت أزيز حاد أشبه بأزيز طائرة مروحية تحلق على علو منخفض. وقد أخذ ذلك الأزيز يقترب بصورة مطردة حتى أيقنت بأن تلك الطائرة المروحية سوف تهبط بين لحظة وأخرى في ردهة المنزل. وأن طاقمها سوف يقتحم غرفتي في الدقائق التالية. ولكن بدلا عن طاقم الطائرة المروحية دخل إلى غرفتي من خلال الباب مباشرة (دبور) أخضر اللون. وقد دخل ذلك الدبور إلى الغرفة في وقار شديد وكأنه سيد محترم يدلف إلى منزله بعد نهار من الكدح والعناء.

ولايمكن وصف الغيظ الذي

شعرت به لدى اقتحام الدبور غرفتي بتلك الطريقة الوقحة وذلك الأزيز البشع. وخاصة أن الدبور قد شرع فور دخوله إلى الغرفة في استكمال دورة كاملة كان قد بدأها في سماء الغرفة من الجهة اليمنى حيث دخل. وانتهى عند الجهة اليسرى من الباب وكنت أتوقع بعدها أن ينصرف عبر الباب. إلى غير رجعة. ولكنه ما كاد يستكمل الدورة الأولى حتى شرع في دورة ثانية. ولا أدري لماذا أحسست بأن الدبور في أثناء تحليقه حول الغرفة إنما كان يقوم بفحص المكان باحثا عن شيء ما. وقد تأكد حدسي حينما توقف الدبور في منتصف دورته الثالثة حيث حط على موضع معين بين الحائط والسقف من دون أن يتوقف خلال ذلك عن إصدار أزيزه البشع.

ولكن الدبور لم يستقر على ذلك الموضع سوى ثوان قليلة انصرف بعدها خارجا من باب الغرفة على عجل. وقد ران على الغرفة بعد خروج الدبور هدوء شديد لم أعهده في الغرفة من قبل. ولكن ذلك الهدوء لم يدم سوى لحظات قليلة عاد بعدها الدبور والأزيز إلى فضاء الغرفة من جديد. حيث حط الدبور على نفس الموضع السابق. ولم يبق إلا برهة قليلة مماثلة. انصرف بعدها بالسرعة نفسها خارجا من الغرفة.

وفي واقع الأمر فقد ظل الدبور ينصرف من الغرفة ثم يعود إلى موضعه نفسه مرات عديدة من دون أن أعرف لذلك دافعا معقولا حتى خيل إليّ بأنني أحلم. وأن ذلك الدبور والأزيز ليسا سوى جزء من كابوس فظيع. ولكنني بعد الرحلة السابعة أو الثامنة للدبور عرفت السبب الذي من أجله يقوم بتلك الرحلات المتوالية. فقد كان الوغد يقوم ببناء منزل داخل غرفتي. وكان لدى خروجه وعودته إلى الغرفة إنما يجلب المواد اللازمة للبناء.

وعند إدراكي تلك الحقيقة المؤسفة تملكني هم عظيم. فأنا قد اعتدت خلال سنوات طويلة على الحياة بمفردي لا أسمح لأحد بأن يزعجني أو يضايقني. حتى إنني لم أقم باستخدام خادم يساعدني في أعمال المنزل. ولكن ها هو ذا الدبور الآن يقتحم عليّ غرفتي ويفسد حياتي وهدوئي. وقد أخذت على الفور بالتفكير في طريقة للتخلص من ذلك الدبور والانتقام منه. هل أنهض إليه - مثلا - بالمعصا الطويلة فأحطم منزله فوق رأسه وأمزقه أشلاء؟ أم هل آتي بخرطوم الماء فأرسل إليه وابلا كالسيل الجارف يكتسحه ويسحق منزله؟ بل إنني فكرت من فرط حنقي الشديد أن أنصب له شركا. أو أفاجئه وهو نائم في هدأة الليل فأقبض عليه حيا وأتلذذ بتعذيبه مدة من الوقت قبل أن أقتله وأمثل بجثته حتى يكون عبرة لكل من تسول له نفسه اقتحام غرفتي وإفساد راحتي بمثل تلك الوقاحة وذلك الأزيز المزعج البغيض.

ولكنني في تلك اللحظة كنت في غاية الدرجة من التعاس والإجهاد. ولم يكن في وسعي القيام بأي مجهود. لذا فقد وضعت الصحيفة فوق وجهي واستغرقت في نوم عميق.

عندما صحوت من النوم كانت الشمس قد شارفت على الغيب. وكان يخيم على الغرفة هدوء عظيم. وكنت أحس باسترخاء شديد. وكان الدبور قد فرغ من بناء منزله. فألقيت عليه نظرة فاحصة. كان منزلا متواضعا يتكون من غرفة واحدة ذات سقف أملس محدودب يرتفع قليلا عند المدخل الوحيد الواسع. لا شك أنه كان - بوجه عام - لا غبار عليه. وكان الدبور نفسه رابضا أمام مدخل منزله في تلك اللحظة. وكان يبدو عليه مزيج من الإرهاق والمتعة والفخر.

فألقيت نظرة فاحصة. كان دبورا متوسط الحجم في مقتبل الشباب. وكان لونه أخضر زاهيا. وكان الإخضرار في أطراف جناحيه فاتحا لامعا. بينما كان حول بطنه داكنا يميل إلى السواد.

وحينما تحركت ناهضا عن سريري دخل الدبور إلى مسكنه. لا شك أنه في حاجة إلى قسط وافر من الراحة والنوم بعد ما قام به من عمل. لذا فقد فررت من جانبي إرجاء اتخاذ أي قرار بشأنه وشأن منزله حتى الصباح.

في صباح اليوم التالي نهضت عن فراشي باكرا - كما هي عادتي - وكان أول شيء فعلته هو أنني ألقيت نظرة على منزل الدبور. لم يكن الدبور جالسا أمام منزله. وأحسست بأنه ليس في داخل المنزل أيضا. لا بد أنه قد اعتاد هو الآخر على النهوض باكرا لاكتساب رزقه. وعندما فرغت من ارتداء ملابسي وتهيأت لإغلاق باب الغرفة ونوافذها تذكرت بأن الدبور ربما يريد أن يأوي إلى منزله لقضاء وقت القيلولة فيه. وبما أنني كنت أعود متأخرا من العمل فقد تركت له إحدى نوافذ الغرفة مفتوحة حتى يتمكن من الدخول. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أترك فيها نافذة غرفتي مفتوحة عند خروجي.

عندما كنت في مكان عملي أخذت أفكر فيما ينبغي عليّ أن أفعله في شأن ذلك الدبور.

لم يكن في استطاعتي بالطبع تنفيذ ما اعتزمت من قبل من القتل به وتحطيم منزله. كما لم يكن في وسعي السماح له بالبقاء في غرفتي.

كان موضوع ذلك الدبور أمراً شائكا وبالغ التعقيد. لذا فقد قررت وسط انشغالي بالعمل أن أرجئ البحث فيه حتى عودتي إلى المنزل. وحينما عدت في عصر ذلك اليوم وجدت الدبور رابضا أمام منزله في دعة واطمئنان. وقد أخذ يراقبني وأنا أقوم بتغيير ملابسي حتى استلقيت على سريري. وحينما شرعت في مطالعة صحيفتي اليومية كنت أحس به لايزال رابضا يراقبني. وعندما رفعت بصري إليه رفع هو جناحيه لسبب غير معروف. وأصدر أزيزا منخفضا، ثم عاد إلى وضعه السابق. ولم أكن أعرف بالطبع سببا لتلك الحركة التي قام بها الدبور. إلا أنني أيقنت في تلك اللحظة بأن الدبور قد صار بصفة قاطعة زميلا لي في الغرفة. وأننا قد أصبحنا بالفعل أشبه بالأصدقاء.

وبالرغم من الفوارق الهائلة بيني وبين ذلك الدبور في التكوين والطباع والاهتمامات إلا أنني أخذت بمرور الأيام أحس نحوه بمودة وألفة شديدة.

لم يكن أزيزه يزعجني كما كان في السابق، بل إنني كنت في المرات القليلة التي يغادر فيها الدبور منزله في أوقات الأصيل لبعض شؤونه. كنت أحس بفرح شديد حين أسمع صوت أزيزه من بعيد وهو يعود. كما أنني لاحظت - بشيء غير قليل من الدهشة - بأنني قد أقلعت عن العديد من عاداتي الذميمة التي كنت أمارسها في السابق. فأنا -على سبيل المثال- كنت أترك بقايا الخبز والطعام فوق المائدة

أياما عديدة من دون أن أزيلها. كما أنني كنت حين أخلع ملابسي ألقي بها على المقاعد والأسرة من دون نظام. وقد أقلعت عن كل هذه العادات تماما. كما أنني صرت حينما أفرغ من مطالعة صحيفتي اليومية أطويها بعناية شديدة وأضعها فوق المائدة قبل أن أشرع في النوم مهما بلغت بي الدرجة من الإرهاق والنعاس.

وقد حدث ذات يوم بينما كنت أتجول في السوق أن قمت بشراء إناء فخاري فاخر. وقمت بوضع ذلك الإناء لدى عودتي إلى المنزل في منتصف المائدة. وحرصت عند خروجي من العمل في اليوم التالي أن أجلب معي مجموعة من الأزهار والورود من حديقة المصنع الذي أعمل فيه. وقد وضعت تلك الأزهار داخل الإناء. وكم كانت فرحتي عظيمة حينما طار الدبور من مكانه - عندما استلقيت على سريري - وحط فوق تلك الأزهار. وأخذ يتجول بينها يستنشق عبيرها، ويرشف من رحيقها في سعادة واطمئنان! بل إنني حينما تحركت من مكاني ذات يوم دون قصد مني وتناولت شيئا من المائدة كان الدبور حينئذ في مكانه فوق الأزهار في متناول يدي، ولكنه لم يتحرك من مكانه. وظل على ما كان عليه حتى ابتعدت عن المائدة.

وقد سارت الحياة بيني وبين الدبور في وفاق ووئام. وأصبح الدبور بمرور الأيام جزءا من حياتي اليومية. إلى أن جاء ذلك اليوم. في إحدى ليالي الشتاء الباردة. حيث أحسست بالحمى تنهش أعضائي وتنخر في عظامي. وظللت أياما أتقلب في فراشي. وفي الصباح لم أتمكن من الذهاب إلى العمل. بل ظللت تحت أغطيتي طوال النهار. بينما ظل الدبور رابضا فوق الأزهار بمرافقتي وكأنه أحس بأنني لست على مايرام. وقد أحسست وأنا مضطجع على سريري بأن هنالك سؤالا في عينه دون إجابة. فالدبابير دون شك لا تعرف شيئا عن الحمى وغيرها من الأمراض. وقد ظللت على تلك الحال طوال اليوم التالي، والدبور لازال رابضا في مكانه بمرافقتي ولم يغادر موقعه فوق الأزهار إلا لماما.

وبعد ظهيرة اليوم الثالث أتى بعض زملائي في العمل لزيارتي والاستفسار عن سبب غيابي. وعندما وجدوني طريح الفراش أخذني بعضهم إلى المستشفى، حيث أمر لي الطبيب ببعض الأدوية والعقاقير. وكان بعض آخر من زملائي الذين بقوا في المنزل قد لاحظوا الفوضى الضاربة في غرفتي فقاموا بكنس الأرض، ومسح النوافذ وأزالوا بقايا الصحف والمجلات والأوراق، وأخذوا ملابسي المتسخة إلى محل الغسيل القريب من المنزل.

وعندما عدت من المستشفى ولاحظت نظافة المكان كان أول شيء فعلته هو أنني رفعت بصري إلى منزل الدبور. وقد أصابتني صدمة شديدة حينما لاحظت أن المنزل لم يعد في مكانه. ولم يبق منه إلا خطوط صغيرة قاتمة اللون. وقبل أن أفتح فمي بالسؤال تطوع أحد زملائي بالإجابة قائلا: لقد وجدنا غرفتك في غاية الاتساخ والفوضى فقمنا بتنظيفها وترتيبها. وقد لاحظنا دبورا قد بنى لنفسه مسكنا داخل الغرفة فقمنا بإزالته.

وأحسست أنا في تلك اللحظة بأن رأسي قد بدأ يدور. وأن أقدامي قد أصابها وهن عظيم. فسألت وكأنني أصرخ: وماذا حدث للدبور؟

فقال زميل آخر وهو يضحك: لقد حاول الدبور الفرار حينما قمنا بتحطيم منزله. ولكننا حاصرناه وأقفلنا جميع النوافذ. وطاردناه في أرجاء الغرفة حتى قتلناه وألقينا بجثته مع الأوساخ!.

وحينئذ شعرت بأن أقدامي لم تعد قادرة على حملي، واشتد دوار رأسي، وترنحت برهة من الوقت. ثم هويت على الأرض مغمى عليّ. وقد امتلأت أذناي وفضاء الغرفة بكامله بصوت أزيز قوي رهيب ■